الفصل 1

غابة الطحالب

ارتفعت سلسلة الجبال الكئيبة الوعرة على طول حافة غابة الأشجار الطحلبية. كانت الأشجار ترتفع إلى أعلى كالمردة، تتكاثف أوراقها الثقيلة، ثم تنحدر في طريق طويل ملتوٍ نحو قلب الوادي. وهنا وهناك بدت مناطق مقطوعة الأشجار، بقايا معابد قديمة تهدمت منذ زمن بعيد، ولم يبقَ منها غير أنقاض متآكلة بفعل الرياح. ومن وقت لآخر كانت تهب نسمة هواء خفيفة، فتصدر أوراق الطحالب حفيفاً يشبه العويل المكتوم، وتسقط إلى أسفل تراباً مسحوقاً كريه الرائحة.

تحت هذه الروعة الهائلة لسماء تيتان، أحد أقمار كوكب زحل، جلس ثلاثة كائنات ينتظرون.

كان أولهم صندوقاً معدنياً صغيراً مربعاً، يطفو بلا جهد فوق الأشعة الكهرومغناطيسية الخفية التي تمده بالطاقة. له وجه غريب ذو عينين صناعيتين من العدسات البيضاء، وفم رنان. كان يُدعى نبيل صيري. فيما مضى عاش كإنسان مثل بقية الرجال، يعرف مسرات الجسد وآلامه. أما الآن فقد اختلط ذلك الجسد بالتراب منذ سنوات طويلة، وبقي العقل وحده حراً نابضاً داخل هذا الهيكل الصغير المزود بأجهزة استشعار عن بعد، ووسائل للطيران، ورقاقات بيولوجية، ودوائر إلكترونية حية. عقل يستطيع أن يحارب الشر في أي مكان في الكون.

كان نبيل يرى ما حوله بشكل مختلف تماماً عن زميليه. عيناه قادرتان تحت كل الظروف أن تريا أفضل من العينين البشريتين، لكنه حتى مع هذه القدرة لم يستطع اختراق الظلال المتلاطمة المتحركة لهذا الوادي الغامض الممتد أمامه، والذي ظل لغزاً في ضوء أقمار زحل المرتعشة والضباب والظلام.

جلس عادل أشرف على قطعة صخر، وجهه الوسيم وشعره الأسود القصير يظهران في الضوء الخافت. كان كابتن الفضاء، الرجل الذي يعتمد عليه الفريق دائماً في اللحظات الحاسمة. أما الروبوت فهد، فكان جالساً لا يحرك ساكناً، جسده المعدني النحيل منحنٍ مثل قوس من الصلب، عملاقاً أسود ساكناً في الظلام. عيناه الفيروزيتان تلمعان بين الحين والآخر.

مرت ثلاث ليالٍ كاملة منذ أن أخفوا سفينتهم الفضائية «الشهاب» في غابة الطحالب. والليلة هي الرابعة. وحتى جمال زحل نفسه، أجمل كواكب المنظومة الشمسية، بحلقاته النارية ومجموعات أقماره المتألقة، فشل في رفع الروح المعنوية لنبيل. بل إن الروعة التي تحيط بهم من أعلى زادت من كآبة ما في الأسفل.

قال عادل فجأة بحدة ونفاد صبر:

— ما لم يأتِ أمجد الليلة، فإنني سأذهب إلى هناك وأبحث عنه!

راقب نبيل ما يجري بإمعان، وهو يحوم في الهواء بصمت. كان يدرك أن عادل على حق، لكن رسالة أمجد حذرتهم بوضوح من الذهاب إلى المدينة لأي سبب كان.

تحدث نبيل بصوته الرنان الواضح النبرات، الصادر من جهاز ليزر لتضخيم الصوت:

— رسالة أمجد حذرتنا من الذهاب إلى المدينة. عليك بالصبر يا عادل. إنه سوف يحضر.

أومأ فهد برأسه المعدني، فتألقت عيناه الفيروزيتان، وقال بصوته الآلي الرتيب:

— الواضح أن أحداثاً خطيرة طارئة تجري في مدينة قمر زحل. وربما نزيد الأمر سوءاً لو أخذنا نتسكع هنا وهناك قبل أن نعرف حقيقة الأمر.

تحرك فهد بنفاد صبر في الظلال، فأحدث صوتاً معدنياً كئيباً، ثم قطع السكون الذي ران عليهم:

— إنني أوافق عادل. فقد مللت من الانتظار أنا أيضاً!

تنهد نبيل، ذلك التنهد الغريب الصادر من كيان بلا رئتين:

— إننا جميعاً متعبون. لكن لابد من الانتظار. من رسالة أمجد أيقنت أنه ليس جباناً ولا أحمق. إنه يدرك الموقف تماماً. أما نحن فلا نعلم شيئاً بعد. لهذا يجب ألا نعرضه للخطر بالجزع ونفاد الصبر.

همس عادل:

— أعرف ذلك...

لكن صوته كان يحمل شيئاً آخر غير المعرفة. كان يحمل الخوف من أن يكون الأوان قد فات.

وفي أعماق عقل نبيل الحر النابض، بدأت ذكريات قديمة تتسرب. تذكر اليوم الذي اختار فيه بين الهلاك أو هذا الوجود الغريب. تذكر عبقرية والد عادل التي منحته حياة جديدة. وتذكر أيضاً أن هذا العقل الصافي، الذي لا يتأثر بنبضات الجسد، قد اكتشف مع مرور السنوات مزايا شكله الجديد: التفكير الهادئ، والمهارات الفائقة، والقدرة على محاربة الشر بلا ضعف بشري.

ومع ذلك، في هذه الليلة الرابعة تحت سماء تيتان، وأمام عويل أشجار الطحالب الذي يشبه سيمفونية يعزفها اليأس، شعر نبيل بشيء لم يعرفه منذ وقت طويل.

كان يشعر بتوقع الشر.

الفصل 2

رسالة الاستغاثة

وصلت الرسالة في الليلة الثانية من انتظارهم.

كانت إشارة مشفرة قصيرة، بثتها أجهزة الاتصال الضعيفة من داخل مدينة قمر زحل، واستقبلتها أجهزة «الشهاب» المخفاة بين الطحالب العملاقة. لم تكن الرسالة طويلة، ولم تحتوِ على تفاصيل كثيرة، لكنها كانت كافية لتقلب الصمت الثقيل الذي ران على الفريق إلى توتر حاد.

جلس الثلاثة حول شاشة صغيرة مضيئة في غرفة القيادة بالسفينة. عادل يقرأ النص مرة ثانية وثالثة، وفهد يقف خلفه مباشرة، بينما يحوم نبيل في الهواء فوق رؤوسهم، عيناه الصناعيتان مثبتتان على الكلمات المتقطعة.

«... خطر لم أعد أستطيع مواجهته وحدي... القيثارات... لا تقتربوا من المدينة... انتظروني عند الحافة الغربية للغابة... الليلة الرابعة... إن استطعت.»

صمت طويل أعقب القراءة.

قال عادل بصوت منخفض:

— القيثارات؟ ما الذي يعنيه بهذا؟

لم يجب نبيل فوراً. كان عقله الحر يسترجع ذكريات قديمة، بعيدة، من مغامرة سابقة فوق أحد أقمار زحل الخارجية. تذكر أصواتاً رقيقة في البداية، ثم تتحول إلى شيء يشبه السكاكين وهي تقطع الذهن. تذكر كيف كاد يفقد توازنه حتى وهو مجرد عقل بلا جسد.

أخيراً قال:

— أعرفها. أو على الأقل أعرف ما يمكن أن تفعله.

نظر إليه عادل بحدة:

— وهل هي حقيقية؟ أم مجرد أسطورة محلية؟

— حقيقية. وخطيرة أكثر مما يتصور أي أحد على سطح تيتان الآن.

نهض فهد فجأة، فأحدث صوته المعدني صدى في الحجرة الضيقة:

— إذن لماذا ينتظرنا هنا بدلاً من أن يأتينا مباشرة؟ ولماذا يحذرنا من دخول المدينة؟

أجاب نبيل بهدوء، لكنه كان هدوءاً مثقلاً:

— لأنه يعرف أن أي ظهور لوجوه غريبة الآن سيثير الشكوك فوراً. نحن معروفون في بعض الأوساط الفضائية. والصندوق الطائر الذي أحمله... مميز جداً. إذا رآنا أحد داخل المدينة قبل أن يشرح لنا الأمر، فقد يضيع كل شيء.

أدار عادل الكرسي وواجه زميليه:

— الوضع في مدينة قمر زحل معقد منذ سنوات. الوطنيون الأصليون يرون في أهل الأرض تهديداً لنفوذهم القديم. والمستوطنون الأرضيون يرون في الوطنيين عقبة أمام التوسع والتعدين. وأمجد... كان الجسر الوحيد بينهما. رجل أرضي تزوج من ابنة أحد زعمائهم، وأنجب ابناً، وصار مستشاراً مقبولاً لدى الطرفين.

أضاف نبيل:

— والآن يبدو أن هذا الجسر أوشك على الانهيار.

صمتوا مرة أخرى. خارج السفينة كانت أشجار الطحالب تواصل عويلها المكتوم تحت ضوء حلقات زحل الباهت. وفي الوادي البعيد كانت أضواء مدينة قمر زحل تتلألأ كنجوم صغيرة خائفة.

قال فهد فجأة، بصوته الرتيب الذي يحمل هذه المرة نبرة مختلفة:

— هل تظنان أنه ما زال حياً؟

لم يجب أحد. لكن السؤال ظل معلقاً في الهواء مثل السهم الذي لم يصل بعد إلى هدفه.

في تلك الليلة، وبينما كان عادل يحاول النوم وفهد يراقب الشاشات، ظل نبيل يحوم وحيداً خارج السفينة. كان ينظر إلى الأضواء البعيدة للمدينة، ويتذكر كلمات الرسالة مرة بعد أخرى.

«خطر لم أعد أستطيع مواجهته وحدي...»

وعرف، بحدس ذلك العقل الحر الذي لم يعد يعرف الأوهام، أن الليلة الرابعة لن تكون مجرد لقاء.

ستكون بداية شيء أكبر وأخطر مما تخيلوا جميعاً.

الفصل 3

الليلة الرابعة

مرت الساعات ببطء ثقيل فوق تيتان.

كان نبيل يحوم على ارتفاع منخفض بين أغصان الطحالب، جهازه السمعي الفائق يلتقط كل صوت خافت لا تستطيع الأذن البشرية تمييزه. أصبح حفيف الأوراق وخشخشة التربة الجافة نمطاً متغيراً متذبذباً من الأصوات، كأن أصابع اليأس واللاأمل تعزف سيمفونية طويلة مملة. ولم يكن نبيل يعرف الأوهام، ومع ذلك تكونت لديه في هذه الليالي الطويلة حاسة غريبة من توقع الشر. لعل ذلك يرجع إلى الهمس الحزين الصادر من غابة الطحالب نفسها.

تفاعل مخه النابض مع التأثير المتكرر للنمط الصوتي، وأصبح يأمل — تماماً مثل عادل وفهد — أن يحضر أمجد قريباً.

مر الوقت. وملأت حلقات كوكب زحل الفضاء بلهب سماوي أخاذ. واستمرت الأقمار العديدة في دوراتها المهيب الأبدي، وهي تستحم في أشعة زحل الوديعة. ولم تكن الأشجار الطحلبية لتكف عن عويلها المثير للأعصاب.

وبين كل لحظة وأخرى كان عادل ينهض ليتحرك جيئة وذهاباً عبر المنطقة الخالية، ثم يعود فيجلس على الصخرة نفسها، يضغط يديه بقوة حتى تبيض مفاصله.

فجأة صدر صوت يختلف عن جميع الأصوات الأخرى.

سمعه نبيل أولاً. أنصت جيداً، وبعد لحظات قال بصوته الرنان:

— هناك رجلان يصعدان المنحدر من الوادي، قادمان تجاهنا.

قفز فهد من مكانه واقفاً. وقال عادل بسرعة وبنبرة حادة:

— الأفضل أن نحتمي جيداً حتى نطمئن تماماً.

وسرعان ما اختفى الثلاثة في جوف الظلام. أخذ نبيل يطير قريباً جداً من الشخصين القادمين، دون أن يشاهداه، لدرجة أنه كان يمكنه أن يطلق أحد أشعة قوته بحيث تلمسهما.

دخلا المنطقة الخالية وهما يلتقطان أنفاساً عميقة من جراء صعودهما الطويل، وأخذا ينظران حولهما باهتمام. كان أحدهما رجلاً طويل القامة نحيلاً، أما الثاني فكان أقصر وأعرض، ويتحرك بمرح وسرور مصطنع يخفي تحته القلق. بديا رجلين من كوكب الأرض، وبصمة الحدود لا تخطئها العين عليهما، وكذا صلابة وقوة جسديهما. وكلاهما مسلحان.

قال الرجل الطويل في يأس:

— يبدو أنهم خذلونا... فلم يحضروا يا تامر!

رد الرجل القصير بصوت مفعم بالقلق:

— أعتقد أن رسالتك لم تصل إليهم. ولا أدري يا أمجد ما الذي سوف نفعله الآن. هل يجب علينا العودة من حيث أتينا؟

عندها تكلم عادل من جوف الظلام:

— توقفا لحظة! إن الأمر ليس سيئاً كما تعتقدان.

خرج عادل من مخبئه إلى الفضاء الواسع، وبدا وجهه الوسيم وشعره الأسود القصير في ضوء أقمار زحل. قال تامر بصوت يختلج معبراً عن الارتياح:

— إنه عادل أشرف... كابتن الفضاء.

ابتسم أمجد وهو يقول:

— لا ريب أنك اعتقدت أنني قد لقيت حتفي، وأن شخصاً ما سوف يحضر في الموعد. ظنك هذا ليس مبالغاً فيه. لقد كنت مراقباً عن كثب، لدرجة أنني لم أجرؤ على المجيء حتى تمكنت من تدبير أمري بصعوبة هذه الليلة.

توقف عن حديثه وهو يحملق، بينما كان فهد يقبل بخطى واسعة ويهز الأرض هزاً تحت قدميه المعدنيتين. ثم لحق به نبيل وهو يسرق في صمت على ارتفاع قليل من بين الظلال.

ضحك أمجد وهو مضطرب قليلاً وقال:

— ليتكم تعرفون كم أنا سعيد برؤيتكم جميعاً.

وقال الرجل القصير الضخم:

— وأنا أيضاً! إن اسمي تامر.

جلس أمجد على قطعة ملساء من الصخر وبدأ يتحدث، بينما كان نبيل يحوم حوله مستمعاً، ملاحظاً الانفعالات فوق وجهه. وبدت ملامحه مريحة وكلامه صادقاً. واعتقد نبيل أنه رجل حصيف وقوي، لكنه الآن منهك نتيجة المجهود والخوف طويل الأمد.

قال أمجد بهدوء:

— كنت أول رجل من كوكب الأرض يصل إلى هذا الوادي منذ سنوات. وبعد ذلك أحببت أهل مدينة قمر زحل وأحبوني. وعندما بدأ العاملون في المناجم يصلون إلى تيتان، عملت على عدم حدوث أي متاعب بينهم وبين الوطنيين. ثم تزوجت فتاة من المدينة، ابنة أحد زعمائهم. لكنها ماتت منذ فترة. ولدي ابن منها. وأنا أحد مستشاري الوطنيين... الشخص الوحيد ذو الدم الأجنبي الذي سُمح له بالإقامة في المدينة الداخلية.

تريث لبرهة ليمسح بعض قطرات العرق التي تكاثرت على جبهته، ثم استطرد:

— وكما ترون فقد أصبح لي وزن كبير نسبياً. وقد استخدمت ذلك في حفظ السلام هنا بين الوطنيين وأهل الأرض. دائماً كان في مدينة قمر زحل أشخاص يكرهون رؤية أهل

كوكب الأرض وحضارتهم التي تأتي وتقلص من نفوذهم. وقد حاولوا منذ وقت طويل أن يطردوهم بالقوة. وكان من الممكن أن يشعلوا فتيل الصراع الدامي في المدينة لو تجرؤوا على تحدي التقاليد واستخدموا السلاح الوحيد المتاح لهم. والآن هم أكثر قوة... ويخططون لاستخدام هذا السلاح الرهيب بالفعل.

نظر إليه عادل باهتمام واضح وتساءل:

— ما هو هذا السلاح؟

رد عليه أمجد في همس:

— القيثارات!!

صدمت المفاجأة نبيل، وشاهد دهشة خرافية على وجه عادل.

في تلك اللحظة، تحت ضوء أقمار زحل الباهت وعويل أشجار الطحالب، عرف الثلاثة أن الليلة الرابعة لم تكن نهاية الانتظار.

كانت بداية الكابوس.

الفصل 4

القيثارات

ساد صمت ثقيل بعد أن نطق أمجد بالكلمة.

«القيثارات».

كان نبيل أول من استعاد قدرته على الكلام. حلق أقرب إلى أمجد، وصوته الرنان خرج هذه المرة أكثر انخفاضاً:

— لست أعني بالطبع أن الذين يكرهون أهل كوكب الأرض يخططون لاستخدام قيثارات الموت... كسلاح؟

أومأ أمجد برأسه في حزن وقال:

— هذا هو ما يسعون إليه بالضبط.

ومضت في ذهن نبيل ذكريات الأيام الخوالي فوق القمر تيتان: الأشكال الغريبة للحياة التي كانت سائدة في الغابات الشاسعة، والجمال الآخذ الذي لا يُنسى، والذي كان مقترناً دائماً بالخطر المميت.

قال نبيل بعد لحظات:

— لكن هذا السلاح سوف يدمر أولئك الذين يستخدمونه... ما لم يحموا أنفسهم منه.

أجابه تامر:

— منذ زمن مضى كان لرجال مدينة قمر زحل مثل هذه الحماية. ومن ثم استخدموا قيثارات الموت. لكن هذا الاستخدام كان مشؤوماً وسبب كوارث، لدرجة أنه حُرّم استخدامها تماماً.

تريث قليلاً ثم أضاف:

— والآن هؤلاء الأشخاص يريدون طرد أهل كوكب الأرض بالقوة. ولذلك يخططون لإلغاء هذا الحظر... إنهم يريدون إحضار قيثارات الموت واستخدامها!

أومأ تامر برأسه مؤمناً وقال:

— كانت الأمور تسير على ما يرام حتى مات الملك السابق. لقد كان عظيماً بحق. أما ابنه الملك الحالي فضعيف الشخصية، فأثر عليه المتعصبون ضد الحضارة الأرضية.

رأى عادل الثقة الفائقة في عيني تامر وهو ينظر إلى صديقه، ثم قال:

— وبالطبع فقد حاولوا قتل أمجد. وإذا تخلصوا منه لن يقف أي زعيم أمامهم.

ارتفع صوت أمجد بحيث غطى على هدير ونغمات الأشجار الطحلبية وهو يقول:

— لقد وجهت الدعوة إلى اجتماع عام بعد يومين. وذلك هو وقت اتخاذ القرار: من الذي سوف يحكم مدينة قمر زحل؟ وأنا أعرف جيداً أن هناك فخاً منصوباً لي. وهذا موطن احتياجي الشديد إلى مساعدتكم. لكن يجب ألا يراكم أحد في المدينة. فأي غرباء الآن يثيرون الشك. وأنتم معروفون جيداً...

رمق نبيل — الصندوق المعدني المربع الطائر — ثم أضاف معتذراً:

— ... ومميزون تماماً!

تريث لفترة، خلالها كان صوت هدير وقرقعة الأشجار الطحلبية يشبه الرفرفة العنيفة للأشرعة الضخمة في مهب الرياح.

ثم بدأ أمجد يروي ما يعرفه عن القيثارات، بصوت منخفض كمن يحكي أسطورة قديمة مخيفة:

— هي كائنات حية... رقيقة كالحمام، ريشها فضي متألق وماسي وردي، وعيناها رقيقتان واستعان. تعيش في مناطق معينة بالغابات الشاسعة فوق تيتان. في طبيعتها الأصلية كانت تغني ألحاناً عذبة، ألحاناً تشبه أولى صيحات الكون بعد الانفجار الأعظم، أو همسات الشموس الشابة وهي تدعو الكواكب. لحن الحياة والنمو والازدهار.

توقف لحظة، ثم أضاف بصوت أكثر ظلاماً:

— لكن عقولاً قوية ومدربة تستطيع أن تفرض عليها إيحاءً معيناً. عندها تتحول الأغنية إلى شيء آخر تماماً. تتحول إلى سلاح. النغمات تصبح فوق صوتية، تطعن الذهن كما لو كانت سكاكين حادة، وتمزق الإحساس، وتدفع من يسمعها إلى الجنون أو الموت. لهذا سُميت قيثارات الموت. ولهذا حُرّم استخدامها منذ أجيال.

نظر نبيل إلى الظلام المحيط بهم وقال ببطء:

— وأنا أعرف مدى خطورتها. قابلتها مرة من قبل... منذ سنوات. وكانت تجربة رهيبة.

رفع أمجد رأسه فجأة:

— إذن أنتم تفهمون لماذا أحتاجكم. تيمور — أعدى أعدائي — هو من يقود المتعصبين الآن. وهو الذي يؤثر على الملك الضعيف. وإذا نجح في رفع الحظر في الاجتماع بعد يومين... فلن يدمر أهل الأرض فقط، بل كل من فوق تيتان.

في تلك اللحظة، وسط عويل أشجار الطحالب وضوء أقمار زحل المرتجف، بدا الوادي كله وكأنه يتنصت إلى كلامهم.

وعرف نبيل أن الخطر الذي جاءوا من أجله لم يعد مجرد خطر.

كان شيئاً يمكنه أن يدفع كوكباً بأكمله إلى الجنون.

الفصل 5

الإبرة السوداء

لم يسمع نبيل، برغم حاسته السمعية المرهفة، ذلك الصوت الخافت... حتى أصبح الوقت متأخراً. ثم متأخراً جداً بثانية واحدة.

وثب رجل في المنطقة الخالية.

وفجأة توقف أمجد عن الحديث، ثم صرخ باسمه. رقد أمجد ووجهه إلى أسفل في التراب الناعم، وبرز من صدغه نصل صغير أكبر قليلاً من الإبرة، وخرجت نقطة دم سوداء عند النقطة التي اخترق اللحم عندها.

حام نبيل منخفضاً فوق الرجل المصاب، ولمست أشعته الحساسة حلقه وصدره، ورفعت الجفنين الرخويين. ثم أعلن بدون أمل:

— إنه ما زال يعيش! ولكن لا أدري إلى متى؟!

حمل فهد جسد أمجد واخترق به الغابة. وبرغم طول قامة المصاب إلا أنه بدا كطفل بين يدي الروبوت العملاق. زمجرت الرياح، واهتزت الأشجار الطحلبية وقرقعت، وبدأ الظلام يسدل ستائره.

قال تامر بلهفة، ووجهه شاحب محدق في لا شيء من أثر الصدمة:

— أرجو أن تسرع... فربما ما زالت هناك فرصة!

أخذ نبيل يحس بالعواطف، لكن أقوى وأوضح من ذي قبل، خالية تماماً من التشويش الكيميائي لخلايا الجسم. والآن شعر بالرثاء على تامر.

قال عادل له وهو يركض إلى جانب فهد:

— إن سفينتنا الفضائية «الشهاب» ما زالت أمامنا.

اقتربوا من السفينة. كانت عبارة عن كومة من المعدن بين أشجار عملاقة. وبسرعة أدخلوا أمجد فيها. مدده فهد بعناية فوق منضدة المختبر الصغير. كان ما يزال يتنفس.

لكن عادل كان يعرف أن ذلك لن يستمر طويلاً.

بدا مختبر سفينة الفضاء «الشهاب» مزدحماً بأجهزة الليزر الطبية المماثلة لتلك الموجودة بمعظم المستشفيات الحديثة فوق كوكب الأرض. ومعظمها مصمم لأغراض طبية خاصة، وقد استُعملت مرات عديدة من قبل لإنقاذ حياة بعض الأشخاص.

والآن شغل عادل وفهد في محاولة إنقاذ حياة أمجد... بكل ما يمكنهما من قدرة.

ضغط عادل على بعض الأزرار في لوحة مفاتيح الكمبيوتر الطبي، وفي غضون بضعة ثوانٍ كانت الأنابيب الدقيقة مثبتة داخل شرايين المصاب. وأخذت المضخات الإلكترونية

تعمل بحيث تحافظ على معدل السريان الطبيعي للدم، كما تغذي القلب مباشرة بمحلول منبه ومنشط. وكانت وحدة الأكسوجين تعمل بكفاءة عالية.

أومأ عادل برأسه وقال:

— النبض والتنفس ضعيفان... دعنا ننظر إلى داخل المخ.

ثم لف منظاراً دقيقاً للفحص الطبي داخل الجسم إلى موضع معين وشغّله.

نظر نبيل إلى شاشة الكمبيوتر الطبي وهو يحلق بجوار كتف عادل وقال:

— الفص الجبهي ممزق وتالف تماماً. انظر إلى هذه الزوائد الدقيقة على هذا الخنجر... لقد أدت بالفعل إلى تدهور حالة خلايا المخ!

تحدث تامر من مدخل المختبر قائلاً، صوته مفعم بالأسى:

— ألا تستطيعان عمل شيء ما؟ ألا يمكنكما إنقاذه؟

ثم حدق في وجه عادل للحظات، وسقطت رأسه إلى الأمام، وقال:

— بالطبع لا! لقد عرفت ذلك بمجرد أن أُصيب!

فجأة فارقته قوته وارتكز على الباب. كان مجهداً ومرهقاً وحزيناً بما يفوق التصوير. قال بصوت حزين:

— من المؤسف تماماً أن تفقد صديقاً! ... الآن ضاع أيضاً كل شيء حارب من أجله أمجد. وسوف يطلق أعداؤنا سلاحاً رهيباً من عقاله... لن يدمر فقط أهل كوكب الأرض، ولكن كل من فوق القمر تيتان!

نظر عادل إلى تامر لمدة طويلة، ثم اتجه إلى شاشة الكمبيوتر الطبي، ثم نظر جانبياً إلى نبيل وفهد، وأومأ برأسه. وأغلق الجهاز وبدأ يخرج الأنابيب الدقيقة من جسد أمجد.

عندها قال نبيل بسرعة:

— انتظر يا عادل... اتركها كما هي عليه!

استقام جسم عادل وفي عينيه نظرة حائرة. وانسل نبيل إلى حيث يقف تامر الشاحب الوجه، أكثر شحوباً من الرجل الميت الذي يرقد على منضدة المختبر.

نادى نبيل اسمه ثلاث مرات قبل أن ينتبه ويجيبه في همس:

— ماذا تريد؟

— ما هو مقدار شجاعتك يا تامر؟

تنهد تامر وقال:

— توجد أوقات لا تجدي الشجاعة فيها شيئاً!

رد نبيل متهيباً:

— أصغِ إليّ! هل لديك الشجاعة لتسير بجوار أمجد إلى داخل مدينة قمر زحل... وأنت تعلم أنه ميت؟!

اتسعت عينا الرجل القصير البدين في ذهول. واقترب عادل من نبيل وقال له بحدة:

— ما الذي تفكر فيه بالضبط؟

تريث نبيل قليلاً ثم قال:

— إنني أفكر في رجل شجاع مات أثناء سعيه لطلب مساعدتنا. وأفكر في كثير من الرجال والنساء الأبرياء الذين سيموتون دون ذنب...

حدق تامر طويلاً في الجثة الممددة على المنضدة... الجسد الذي يتنفس وينبض بما يشبه الحياة المستعارة الآلية من مضخات ومعدات طبية.

وفي تلك اللحظة، وسط صمت المختبر الخانق، عرف الثلاثة أن الموت لم يكن نهاية القصة.

كان مجرد البداية لشيء أكثر جنوناً وخطراً.

الفصل 6

القرار المستحيل

ثم تحركت يدا تامر العريضتان تعبيراً عن اليأس المطلق.

استطرد نبيل قائلاً:

— يجب ألا يعرف أحد أن أمجد قد مات.

اندفع عادل صائحاً:

— لا يا نبيل... لا يمكن أن تفعل ذلك!

قال نبيل بثقة غريبة:

— ولِمَ لا يا عادل؟ إنك قادر تماماً على إجراء العملية الجراحية.

رد عادل مؤكداً، وصوته يرتجف من الغضب والخوف معاً:

— لقد قتلوا أمجد مرة... وهم مستعدون لفعل ذلك مرة أخرى. نبيل، لا يمكنك أن تعرض نفسك للخطر! وحتى لو أمكنني أن أجري العملية الجراحية... فإنني أرفض!

ثم ظهر توسل غريب في نظرات عادل وهو يستطرد:

— إن هذا عملي يا نبيل وواجبي... أرجوك دعني أقم به.

تساءل نبيل في قلق:

— وكيف سوف تقوم به؟ بالقوة؟ إنك لست قادراً على كل شيء. ستذهب إلى الموت المؤكد بقدميك...

توقف نبيل. وبدا له فجأة أنه قد أصيب بالجنون. أجل... لابد أنه جُنّ لكي يخطر على باله هذا الذي يوشك على فعله. ومع ذلك فهذه هي الطريقة الوحيدة، الفرصة الممكنة الفريدة للحيلولة دون وقوع كارثة يستحيل علاجها.

كان نبيل يعرف ما يمكن لقيثارات الموت أن تفعله لو وُضعت في أيدٍ غير أمينة. وما الذي سوف يحدث لأهل كوكب الأرض في مدينة قمر زحل. ويدرك أيضاً مدى الأضرار التي سوف تلحق بالكثيرين من البشر الأبرياء.

قال تامر ببطء شديد:

— إنني لا أفهم شيئاً!

شرح نبيل الأمر قائلاً:

— إن جسد أمجد كامل... والذي تلف فيه فقط عقله. فإذا زودنا هذا الجسد بعقل آخر... مثل عقلي أنا... فإن الأمر سيبدو كما لو أن أمجد ما يزال حياً... لكي ينهي مهمته في مدينة قمر زحل!

وقف تامر لفترة طويلة عاجزاً عن النطق، وهمس أخيراً:

— هل هذا ممكن؟!

تريث عادل قليلاً ثم قال بتودة:

— لقد نجحت مؤخراً عمليات زراعة المخ... مثل أي عضو آخر في الجسم. إن هذا ممكن بالطبع... ولكنه غير مأمون!

زمّ تامر قبضتي يديه ولمع ضوء ما — لعله الأمل — في عينيه.

قال نبيل وهو يطير قريباً من تامر:

— نحن الأربعة فقط نعرف أن أمجد قد مات. ولن تكون هناك أي مشكلة. وأنا أعرف لغة أهل تيتان. وكذلك معظم لغات كواكب المنظومة الشمسية. لكنني سوف أحتاج لمساعدة دليل... يعرف كل شيء عن حياة أمجد... بحيث يمكنني أن أعيشها لفترة زمنية قصيرة... حسبما تستدعي الظروف. وهذا هو دورك يا تامر. وأنا أنبهك أن ذلك لن يكون سهلاً!

تكلم تامر بصوت منخفض لكنه متماسك:

— إذا كنت تستطيع أن تقوم بدورك هذا... فبوسعي أن أقوم بدوري.

قال عادل غاضباً:

— إنني لن أشترك قط فيما تفكران فيه.

رد نبيل مهدئاً الموقف:

— صدقني يا عادل... هذا هو الحل الوحيد!

ثم حام بالقرب من الروبوت فهد وقال له:

— خذ تامر إلى المقصورة الرئيسية... وتأكد من أنه سوف ينام... لأنه سيحتاج لكل قوته ونشاطه.

عاد فهد بعد فترة. دخل وأغلق باب المختبر. وعيناه تتألقان بنوع غريب من المتعة. ووقف عادل حيثما كان... وفكه جامد لا يتحرك!

انساب نبيل إلى الخزانات البيضاء الملاصقة للجدار الأيمن في المختبر. وباستخدام الأشعة الكهرومغناطيسية ذات التطويع الرائع، وبمهارة أكثر من الإنسان الذي يستخدم يديه، أخذ منها المجمع اللوزي الذي سوف يجري العملية الجراحية.

كان المصباح العلوي الذي يرسل الأشعة فوق البنفسجية ينبض ويعمّق كل ما في المختبر.

وقام نبيل — الذي كانت رؤيته أقوى — ولمسته أوقع من أمهر جراح، باستخدام المبضع الليزري لإحداث قطع مبدئي في جمجمة أمجد.

لم يتحرك عادل بعد. وظل وجهه جامداً وعنيداً كما كان. لكن بدأ الشحوب في وجهه وشيء من سيماء اليأس.

قال نبيل في رجاء:

— عادل!

وعندئذ تحرك عادل. واقترب من المنضدة المعدنية ووضع يديه عليها بجوار رأس الرجل الميت. ولاحظ نبيل ارتعاشهما.

قال عادل فجأة:

— لا أستطيع يا نبيل! فلأول مرة أشعر بالخوف!

اقترب منه نبيل وقال بصوت هادئ لكنه حاسم:

— كابتن الفضاء خائف!! إنني لا أصدق... وعموماً فأنا أعلم أنك لن تتركني أموت!

أمسك عادل بالمبضع الليزري ببطء وكأنه رجل يحلم. خففت نظرة فهد المحدقة. وأومأ إلى نبيل من وراء ظهر عادل. كانت ابتسامة مليئة بالإعجاب بكليهما.

وانشغل نبيل بعدة أشياء أخرى. ثم قال:

— عادل! عليك بالاهتمام بشكل خاص بالحبل الشوكي والضفائر العصبية.

قاطعه عادل وهو ما يزال غاضباً:

— إنني أعرف كل هذا جيداً.

استمر نبيل في حديثه:

— الضفيرة العنقية والعضدية والقطنية والعجزية... كانت الأمبولات والحقن موضوعة في صف دقيق.

وأردف نبيل بتودة:

— ها هو المخدر الذي سوف يدخل في غشاءي الأم الجافية والأم الحنون.

أومأ عادل برأسه موافقاً وكانت يداه قد كفتا عن الارتعاد. وأصبح الآن يعمل بمهارة وثقة وسرعة. وتحول فمه إلى خط رفيع متجهم.

حدث نبيل نفسه:

— سوف ينجح... إنه دائماً ينجح في عمله.

ثم جاءت لحظة انتظار وترقب. وسقطت نظرات نبيل على جسد أمجد. وفجأة تملكه الخوف والرعب مما كان مقدماً عليه.

كان راضياً عن نفسه كما هي. ومنذ سنوات مضت كان عليه أن يختار بين الهلاك أو الوجود بالشكل الحالي. ولم ينقذه في ذلك الوقت سوى عبقرية والد عادل الذي أعطاه حياة جديدة. وقد تأقلم نبيل وتعايش مع هذه الحياة برغم غرابتها، بل واستخدمها وانتفع بها. فلقد اكتشف مزايا شكله الجديد: المهارات الفائقة والقدرة على التفكير الصافي بذهن لا يتأثر بنبضات الجسد غير المفيدة والتي لا يمكن السيطرة عليها. وتعلم كيف يكون ممتناً وشاكراً لها.

والآن، وبعد كل هذه السنوات، حدث نفسه:

«إنني أيضاً خائف... ليس من الموت... وإنما من الحياة!»

لكن كان تحت هذا الخوف رغبة شديدة لا تُقاوم في أن يكون إنساناً مرة أخرى... كائناً من لحم ودم!

اضطرب العقل الصافي الدقيق المنطقي الذي لا يخفق تحت وقع كل هذه المخاوف الدقيقة المختلطة ببعضها، إذ قفزت جميعها من قبورها في عقله الباطن. لقد فوجئ بأنه يمكنه أن يصبح ضحية للعاطفة.

وصاح صوت عقله:

«لا أستطيع أن أفعل هذا... لا أستطيع...»

لكن الأوان كان قد فات.

قال عادل بهدوء، وصوته هذه المرة ثابت كالصخر:

— نبيل... استعد!

وببطء شديد تحرك نبيل وهبط ليتمدد بجوار جسد أمجد. ورأى فهد يراقبه بنظرات تعبر عن الألم والفهم... وأيضاً الحسد. إذ كون فهد روبوتاً جعله يتمنى الحياة في شكل بشري!

كان وجه عادل كما لو قد من الصخر. توقفت مضخة المصل عن حركتها الدائبة. ثم دخل نبيل بهدوء في غياهب الظلمات... وأصبح تحت يد القدر.

الفصل 7

اللحم والدم

أول ما شعر به... الإحساس بالسمع.

مجموعة متداخلة من الأصوات القادمة من بعيد، شبه المطموسة والكئيبة. فكر نبيل في أن خللاً قد حاق بجهازه السمعي. ثم اجتاحه تيار من الذكريات المثبطة، وصاحب ذلك قشعريرة وغصة من الخوف وإحساس بالخطأ. خيم الظلام على المكان. ترى لماذا يجب أن يكون الجو مظلماً هكذا في سفينة الفضاء «الشهاب»؟

ناداه شخص ما:

— نبيل... نبيل! افتح عينيك!

عينيّ!!

ومرة أخرى شعر بالرعب الدفين يسري في كيانه. كان ذهنه ثقيلاً، ورفض أن يعمل بسرعة كما توقف خفقان مضخة المصل!

نبضت سلسلة طويلة من الخلايا الحركية غير المستخدمة عندما تكرر هذا الأمر الصادر إليها. وبدون أي تدخل للإرادة فتح جفنيه. جفني شخص ما... لكنهما بالتأكيد ليسا جفنيه! إذ لم يكن له أي جفون لسنوات طويلة.

ورأى رؤية مماثلة للسمع... خافتة غامضة غير واضحة. بدا له أن المختبر الذي يعرفه تماماً يسبح في جو من الضباب الأبيض المتذبذب.

رأى وجه عادل وفهد... ورجلاً غريباً.

لا... ليس غريباً. لقد كان له اسم. إنه تامر.

وبدأت سلسلة الذكريات تتداعى وعادت إليه الذاكرة كاملة... أقلقته ومزقته.

الآن يمكنه أن يشعر بالخوف والألم النفسي والجسدي المصاحب له والعرق ودقات القلب والتقلص المؤلم للعضلات في الجسم.

سمع صوت عادل منخفضاً ومتوتراً:

— ارفع يدك يا نبيل... يدك اليمنى.

رفع نبيل يده اليمنى. وهو في شك من أمره مثل أي طفل لم يتعلم بعد تنسيق الحركة. ثم رفع يده اليسرى ونظر إليهما مدة قصيرة وتركهما يسقطان. وامتلأت عيناه بقطرات من الدموع المالحة وتذكرها.

قال عادل باضطراب:

— إنك بخير وعلى ما يرام.

وساعد نبيل على أن يرفع رأسه وأمسك بكوب شراب على شفتيه وسأله:

— هل تستطيع أن تشرب هذا؟ إنه سوف يزيل الضباب من أمام عينيك ويعطيك ما تريد من القوة.

كانت عملية شرب السائل مثيرة وغريبة. وأزالت الجرعة التأثير الباقي للمخدر. وأصبحت الرؤية والسمع واضحين وأحكم سيطرته على ذهنه.

ظل نبيل ممدداً في سكون لعدة دقائق محاولاً أن يكيف نفسه مع كل الأحاسيس التي كاد أن ينساها عن الجسم البشري! الأحاسيس الصغيرة التي تنبض في داخله... الشعور برقة النسيم عندما يمس الوجه في الربيع... الدفء والسعادة عند تحريك الشفتين... ذاكرة النوم.

أحس نبيل بالغرابة والدهشة. قال هامساً:

— أعطني يدك يا عادل... أريد أن أنهض.

كان عادل واقفاً عند أحد جانبيه وفهد في الجانب الآخر ممسكاً به جيداً. ونهض نبيل في جسد أمجد من فوق المنضدة المعدنية التي كان راقداً فوقها وانتصب في وقفته... رجلاً كاملاً!

وبجوار مدخل المختبر سقط تامر مغمىً عليه!

نظر نبيل إلى الرجل القصير الممتلئ المكوم أمامه على الأرضية ووجهه منتقع وشاحب وقال بصوت فيه رنة الرحمة والعطف:

— لقد قلت لك... إن ذلك لن يكون سهلاً!

كان أمام عادل الكثير من الأمور التي يلزم تعلمها جيداً. وقد بدأ هذا الجسد الطويل الممشوق الذي يسكنه ثقيلاً ومربكاً وبطيئاً للغاية ومن الصعب السيطرة عليه. وفي البداية كانت محاولاته للسير سلسلة من التزححات والتخبطات الخرقاء بحيث اضطر للتشبث بأي شيء في طريقه للحيلولة دون سقوطه على الأرضية. ولكن عندما بدأ يسيطر على الكم المعقد من عظامه وعضلاته وأعصابه وجد نبيل نفسه يشعر بالسعادة لذلك.

كانت الأنواع التي لا حصر لها من الانطباعات الحسية واللمسية والشعور بالحياة وبالدماء الدافئة التي تسري في عروقه والإحساس بالحرارة والبرودة والجوع والعطش... ممتعة ورائعة بالنسبة له.

روعة الحياة!

وبعد أن شعر بأنه من لحم ودم ضم قبضته وحدث نفسه:

«ترى ماذا فعلت؟ وما هو الجنون الذي قمت به؟»

ثم أدرك أنه يجب عليه ألا يفكر في ذلك ولا في نفسه. فقط عليه أن يفكر في المهمة الصعبة التي أمامه والتي سيؤديها نيابة عن أمجد الذي مات!

أفاق تامر من إغمائه وغمغم قائلاً:

— إنني آسف... الذي حدث أنني رأيته... أقصد رأيتك وهذا...

لكنه لم يكمل وأردف:

— إنني بخير الآن. ولا يوجد أي مبرر للقلق عليّ.

ولاحظ نبيل أنه يتعمد عدم النظر إليه لكن منظره العنيد كان يؤكد صدق ما قاله.

قال تامر:

— يجب علينا العودة في أسرع وقت. فقد مضى زمن طويل منذ رحيلنا.

وأضاف:

— لكن يبقى أمر ما: هل سوف نخبر فادي؟

تساءل عادل:

— فادي؟!

— ابن أمجد الوحيد. إنه في الثالثة عشرة من عمره.

قال نبيل ببطء:

— لا يوجد أي داعٍ لإبلاغ الصبي. ربما لن يفهم الأمر. وسوف يتعرض للآلام والعذاب. وفي قرارة نفسه... تمنى لو لم يكن لأمجد أي أبناء.

تدخل عادل في الحديث قائلاً:

— نبيل... لقد كنت أتحدث مع تامر. إن المجلس الأعلى سوف ينعقد هذه الليلة بعد عدة ساعات. وسنضطر للذهاب بمفردك إلى المدينة الداخلية لأن تامر لن يُسمح له بدخولها. لكنني أنا وفهد سنحاول الوصول إلى مدينة قمر زحل والدخول سراً إلى قاعة المجلس الأعلى.

وناول نبيل شيئين: أسطوانة سمعية صغيرة أحادية الموجة وصندوقاً معدنياً فضياً لا تزيد مساحته على عشرة سنتيمترات مربعة. وقال له:

— سوف نظل على اتصال لاسلكي بهذه الأسطوانة. أما الصندوق فيمكنه أن يصدر ذبذبات صوتية غاية في القوة.

فحص نبيل الصندوق الصغير والمجموعة الداخلية البارعة المصفوفة من الرقاقات الإلكترونية ووحدات تشغيل الطاقة والشبكات المعقدة وقال مدافعاً:

— كان من الممكن تبسيط هذا التصميم يا عادل!! لكن في الظروف الراهنة فهو مجهود يستحق الإشادة. وسوف يحقق الغرض منه تماماً إذا استدعت الظروف!

رد عادل وهو يبتسم:

— دعنا نأمل في ألا نقابل مثل هذه الظروف.

ثم نظر إلى نبيل وحملت عيناه فخراً عميقاً وإعجاباً شديداً وهو يستطرد:

— أتمنى لك حظاً سعيداً.

مد نبيل يده. لقد مر وقت طويل جداً منذ أن فعل ذلك من قبل. وأدهشه أن يلاحظ اختلاج صوته وهو يقول:

— عادل... انتبه لنفسك جيداً.

استدار وخرج من المختبر وهو غير متوازن تماماً. وسمع خلفه عادل يتحدث بصوت منخفض وقاسٍ إلى تامر:

— إذا وقع له أي حادث... لم تتدخل... فسوف أقتلك بيدي هاتين!

ابتسم نبيل.

ثم لم يلبث تامر أن لحق به ومضيا معاً عبر الأشجار الطحلبية التي تتراقص أشباحها تحت ضوء الشمس الخافتة البعيدة.

وبينما هما سائران تحدث تامر عن مدينة قمر زحل والرجال والنساء الذين يقيمون بها. أنصت نبيل إليه وهو يعلم أن حياته تتوقف على تذكر كل كلمة يسمعها منه. لكن حتى هذه الضرورة لم تكن لتحتل أكثر من جزء بسيط من ذهنه. فقد كان بقيته مشغولاً بأمور أخرى.

كان مشغولاً بروعة أن يكون مرة أخرى... من لحم ودم.

الفصل 8

الطريق إلى المدينة

سارا عبر الأشجار الطحلبية التي تتراقص أشباحها تحت ضوء الشمس الخافتة البعيدة.

كان نبيل ما يزال يتعلم كيف يسيطر على هذا الجسد الجديد. كل خطوة كانت تتطلب تفكيراً واعياً: كيف يضع القدم، كيف يحافظ على التوازن، كيف يتنفس دون أن يلفت

الانتباه إلى غرابة حركاته. ومع ذلك كان هناك شيء آخر يشغله أكثر من التنسيق العضلي.

كان يشعر.

رائحة النفاذ الباردة للتراب. اللذعة الباردة للهواء في الأماكن الظليلة. دفء الشمس في المناطق الخالية من الأشجار. الحركة المعقدة للعضلات اللازمة لأخذ خطوة وراء أخرى. معجزة التنفس والعرق. وإمساك أي شيء بخمسة أصابع ذات أنامل. كل الأشياء الصغيرة التي يأخذها الإنسان أمراً مسلماً به... الأمور البسيطة المعجزة الخارقة التي أنعم بها الله جل جلاله علينا ولا نلاحظها إلا بعد زوالها!

كان نبيل مبهوراً ومأخوذاً تماماً بتدفق العواطف والانطباعات المؤثرة التي من الصعب مقاومتها أو الهروب منها. ثم لم يلبث أن جمع شتات شجاعته وعزيمته. وبمرور الوقت اعتاد على انحدار السلسلة الصخرية ووجد متعة في صعوبة تسلقها.

توقفا لالتقاط أنفاسهما.

نظر تامر بانحراف إلى نبيل وعيناه تمتلئان فضولاً وسأله:

— كيف تشعر الآن... وقد أصبحت رجلاً مرة أخرى؟

لم يجبه نبيل. لم يقدر على الإجابة. ولم يجد الكلمات.

فجأة استدار تامر كما لو كان خائفاً مما قاله. ومن كل الأشياء التي ينطوي عليها هذا السؤال. ثم اندفع هابطاً على المنحدر تجنباً للمرور بجانب مدينة قمر زحل وقال:

— لا جدوى من البحث عن المتاعب!

وسلكا الطريق الوعر بعيداً عن المدينة عبر إحدى الوهاد. شاهدا على البعد مستوطنة من المنازل المعدنية الرمادية فوق جزء مسطح من السلسلة الصخرية أسفل الفوهة السوداء لمناجم الذهب واليورانيوم.

وظن نبيل أن المدينة كانت هادئة بشكل غير عادي.

قال تامر:

— انظر إلى المتاريس التي في الطرقات! إنهم ينتظرون هبوط الليل.

عند سفح سلسلة الصخور وصلا إلى سهل مفتوح تتناثر فيه تجمعات من الشجيرات الرمادية المنخفضة. ثم بدأ الرجلان في عبور السهل متجهين إلى ضواحي مدينة قمر زحل. وبمجرد أن اقتربا من منطقة معينة تحركت مجموعة من الرجال المهرولين لملاقاتهما.

ورأى نبيل أن الذي يتقدمهم صبي طويل أسود الشعر.

همس تامر:

— هذا فادي... ابنك.

كان فادي بجلده الذهبي الفاتح ووجهه الذي يجمع بين وسامة أمجد وشيء من الجمال الرقيق وعينيه المباشرتين الدافئتين على نفس الصورة التي توقعها له نبيل.

شعر بالذنب لحد ما وهو يحيي الصبي باسمه لكن اختلط بهذا الشعور إحساس غريب بالكبرياء. وحدث نفسه قائلاً:

«يا ليت كان لي ابن مثل فادي... في الأيام الماضية قبل أن يحدث لي هذا التغيير!»

ثم أردف يائساً:

«يجب ألا أفكر في هذه الأشياء! إن جسمي البشري يأخذني إلى الماضي.»

كان فادي لا يكاد يلتقط أنفاسه وبدت على وجهه علامات الأرق والقلق وهو يقول:

— أبي... لقد قلبنا الوادي بحثاً عنك! أين كنت؟

بدأ نبيل يوضح له أنه كان مع تامر. لكن الصبي قاطعه وهو ينقل من موضوع لآخر وسط سيل لا ينقطع من الكلمات:

— لقد خشينا أن يكون قد حدث لك مكروه. وبينما كنت مختفياً قدموا موعد انعقاد المجلس! وتمنوا ألا تعود قط... أو تكون عودتك متأخرة جداً.

ثم تشبث يد فادي الغضة القوية بذراع نبيل وقال له:

— إنهم مجتمعون الآن في قاعة المجلس! ولعل ما زال أمامنا فسحة من الوقت... لكن علينا أن نسرع!

نظر تامر باتجاه فوق رأس الصبي إلى نبيل وقال:

— لقد حان وقت العمل!

ثم أسرعوا جميعاً إلى داخل المدينة.

كانت المنازل بيضاوية مبنية من الطوب الرمادي ويرتفع عالياً فوقها سور المدينة الداخلية وتعلوه السقوف والأبراج. ملأ نبيل رئتيه بروائح الطعام والدخان المتصاعد من نيران الطهي والأجسام المدهونة بالعطر والمسك والطوب القديم المتفتت بتأثير الشمس النارية والحيوانات ذات السلالات غير المعروفة التي تملأ الحظائر.

ثم أنصت إلى وقع أقدامه وهي ترن فوق الأرضية الصخرية وأحس بالنسمة الباردة وهي تهب على وجهه المبلل بالعرق. وأخذته الإثارة مرة أخرى واقترن بها نوع من الرهبة إزاء روعة الحواس البشرية.

خطر لنبيل أن شيئاً آخر كان موجوداً في هواء مدينة قمر زحل...

شيء اسمه الخوف!!

وصلوا أخيراً إلى أبواب السور الداخلي. وهنا تقهقر تامر والرجال الآخرون امتثالاً لتعليمات الحراس بينما تقدم نبيل وفادي بمفردهما.

كان المعبد والقصر يرتفعان شامخين فوق السور في مهابة وقوة ويحملان رسوماً تاريخية لبطولات ملوك مدينة قمر زحل. ولم يكن نبيل ينتبه لها إذ أخذت الآن أعصابه تتوتر فقد بدأ الاختبار قبل أن يكون مستعداً تماماً له!

كان هذا هو الوقت الذي يجب ألا يتردد أو يتلعثم فيه.

وإلا دخلت قيثارات الموت إلى مدينة قمر زحل... وحدثت الكارثة المحققة!

الفصل 9

داخل الأسوار

ظهر برجان مستديران من الطوب ومدخل ضخم منخفض. وأُضيئت القاعة الداخلية بالمصابيح، ووهج الضوء الأحمر يلمع على الأجسام النحاسية وعلى الأثواب الموشاة الطقوسية التي يرتديها المستشارون، والخوذات الفضية ذات الشكل البدائي تتألق هنا وهناك.

أخذت الأصوات تعلو وتتداخل. وكان إحساس نبيل بالتوتر كبيراً لدرجة أنه كاد أن يصرخ!

ضغط فادي على ذراعه وقال شيئاً لم يعه نبيل، لكن الابتسامة ونظرات الحب والفخر لا يمكن أن تخطئهما العين. ثم ذهب الصبي إلى المقاعد العالية التي في الركن الأيمن للقاعة.

ووقف نبيل بمفرده!

في أحد جانبي القاعة المستطيلة وبجوار العرش العالي المظلل بالذهب والخاص بالملك رأى مجموعة من الرجال ممن يرتدون الخوذات الفضية وهم ينظرون إليه بكراهية لم يستطيعوا إخفاءها، ومعها ازدراء لا ينشأ عادة إلا بعد الانتصار!

وفجأة، ومن بين الحشود الكثيفة التي أمامه، خطا رجل عجوز إلى ناحية نبيل. له لحية بيضاء صغيرة ووضع يديه على كتفيه وحدق فيه بعينين مكروبتين وقال له بصوت أجش هامس:

— لقد تأخرت جداً يا أمجد... وضاع كل شيء عبثاً... إنهم أحضروا قيثارات الموت هنا في مدينة قمر زحل!

شعر نبيل برغبة شديدة في التراجع. فلم يكن يريد أن يحدث هذا. لم يتوقع ذلك الآن. إذ سوف يُطلب منه في الحال مواجهة قيثارات الموت! لقد قابلها مرة قبل ذلك منذ سنوات وكانت تجربة رهيبة. إذ إنه يعرف مدى خطورتها ومكرها. وتذكر أنه صُدم وقتئذ لأنه كان مجرد عقل حر مجرد. أما الآن فلا يدري ما الذي سوف يقدر له وقد عاد مرة أخرى إلى الجسد البشري الحساس الغامض.

قبضت يد نبيل بقوة على الصندوق المعدني الصغير في جيبه. يجب أن يجازف بالاعتقاد بأنه سوف يحميه من قيثارات الموت. ولكن بعد أن تذكر ما حدث منذ سنوات خشي من التعرض للاختبار!

سأل المستشار العجوز:

— كيف علمتَ بأمر قيثارات الموت؟

رد عليه بسرعة:

— تيمور واثنان آخران شوهدوا وقت الفجر عائدين من الغابة. وكل منهم يحمل شيئاً يخفيه. وكانوا جميعاً يرتدون خوذات الصمت.

وأشار المستشار العجوز إلى جماعة من الرجال يقفون بجوار عرش الملك وينظرون بحقد المنتصرين إلى من يعتقدون أنه أمجد.

ثم أردف قائلاً:

— انظر... إنهم ما يزالون يرتدونها.

وبسرعة درس نبيل خوذات الصمت.

من النظرة الأولى بدا أنها لا تزيد على كونها خوذات قتال برونزية عادية لمقاتل بربري. لكنها ذات تصميم غريب يغطي الأذنين ومنطقة الجمجمة كلها وحجمها كبير جداً. كما لو كانت مبطنة بعدة طبقات من مواد عازلة للصوت. خوذات الصمت!

عرف نبيل الآن أن أمجد كان على حق عندما تحدث عن وجود وسيلة قديمة للحماية استُخدمت منذ زمن طويل بمعرفة رجال مدينة قمر زحل ضد قيثارات الموت!

وقف الملك على عرشه.

وسرعان ما تلاشى اللفظ العصبي إلى مجرد توتر مكتوم. كان شاباً يافعاً صغيراً ومرتعشاً وتبدو على وجهه علامات الضعف والعناد مختلطة ببعضها. أما رأسه فكان عارياً.

تحدث قائلاً:

— لقد تساهلنا نحن أهل قمر زحل كثيراً مع الغرباء في وادينا. بل إننا قاسينا من جلوس أحدهم في هذا المجلس... والتأثير في قراراتنا.

وهنا التفت جميع الرؤوس في قلق تجاه نبيل. واستطرد الملك:

— إن أساليب الغرباء تؤثر بشكل متزايد على أرواح شعبنا. لهذا يجب أن يذهبوا جميعاً. ونظراً لأنهم رفضوا فلابد من طردهم بالقوة!

وبدا أنه قد حفظ هذه الكلمات عن ظهر قلب دون أن يفهمها! عرف نبيل ذلك من الطريقة التي تلعثم بها وبالنظرات التي تطلعت بها عيناه إلى أطول الرجال المرتدين العباءات السوداء وخوذات الصمت من أجل الحث والتشجيع.

الرجل المتجهم الطويل القامة الذي أيقن نبيل من وصف تامر أنه تيمور... أعدى أعداء أمجد.

قال تيمور بصوت جهوري:

— إننا لا نستطيع طرد أهل الأرض بأسهمنا وحرابنا. فأسلحتهم هي الأخرى قوية. ونحن أيضاً لدينا سلاح لا يستطيعون حياله شيئاً! وكان هذا السلاح محرماً علينا من الملوك الضعفاء السابقين الذين كانوا يخشون من استخدامه ضدهم. أما الآن فلابد من استخدامه. ولذلك فإنني أطلب رفع التحريم القديم! وأطلب الاستعانة بقوة قيثارات الموت لطرد أهل الأرض نهائياً!

ساد القاعة صمت كئيب متوتر. وشاهد نبيل رجالاً ينظرون إليه والثقة المتحمسة في عيني فادي الصغير. وعرف أنهم وضعوا داخله آخر أمل يأنس لهم بمنع استخدام سلاح قيثارات الموت.

وأدرك نبيل أن عليه القيام بالمهمة بمفرده. إذ ربما لا يتمكن عادل وفهد من الوصول سراً إلى قاعة المجلس!

تحرك نبيل بخطوات واسعة إلى الأمام ونظر حوله ثم أحس بنوع ما من الفخر والكبرياء الشديدين وانعكس ذلك في قوة وجهارة صوته وهو يقول:

— ليس صحيحاً أن الملك يخاف... ولا أهل كوكب الأرض! وإنما تيمور... إذ إنه ليس مهتماً بتحرير مدينة قمر زحل من عبوديتها الأسطورية... وإنما بغرض سيطرته هو على رقابنا جميعاً.

سادت لحظات من الصمت التام حدق خلالها الجميع فيه مشدوهين خاصة الملك والمستشارين.

ووسط هذا السكون المطبق استطرد نبيل مؤكداً:

— إنني أتحدث لصالح المجلس. يجب ألا يحدث أي رفع للتحريم. ومن يُدخل القيثارات إلى مدينتنا سوف يتعرض لعقوبة الموت!

للحظات قصيرة استعاد المستشارون شجاعتهم وعبروا عن ذلك إذ ضجت القاعة بالهتاف.

وفي ظل هذا الضجيج انحنى تيمور وتحدث في أذن الملك. ورأى نبيل أن وجه الملك ازداد شحوباً!

ومن وراء العرش العالي رفع تيمور خوذة مرصعة بالذهب والجواهر الثمينة ووضعها على رأس الملك... خوذة الصمت!

تحدث الملك بصوت أجش مرتع:

— لصالح مدينة قمر زحل... أعلن حل مجلس المستشارين!

عندها عرف نبيل أن الفخ قد أُطبق.

وأن القيثارات... قادمة لا محالة.

الفصل 10

قاعة المجلس

ساد الصمت لحظة واحدة بعد إعلان الملك حل المجلس، ثم انفجر المكان بالضجيج.

نهض بعض المستشارين من أماكنهم محتجين، وعلت أصواتهم بالرفض والدهشة. لكن الحراس الذين يرتدون خوذات الصمت تقدموا بسرعة من الممرات الجانبية وقطعوا عليهم الطريق. لم يرفعوا سلاحاً، لكن وجودهم وحده كان كافياً ليعيد الصمت الثقيل إلى القاعة.

كان نبيل لا يزال واقفاً في وسط المكان، جسده الجديد يشعر بكل شيء دفعة واحدة: حرارة الأجساد المكتظة، رائحة البخور المختلطة بعرق الخوف، ووهج المصابيح الحمراء الذي ينعكس على الخوذات الفضية فيجعلها تبدو كعيون معدنية باردة.

نظر إلى الملك. كان الشاب يافعاً أكثر مما بدا من بعيد، ووجهه شاحب كمن يقرأ كلمات لم يكتبها بنفسه. وعيناه لا تثبتان على أحد، بل تتحركان باستمرار نحو تيمور كأنها تطلب الإذن بالاستمرار.

تيمور لم يكن يبتسم. كان يقف خلف العرش مباشرة، طويلاً متجهماً، عباءته السوداء مفتوحة قليلاً عند الصدر. وعيناه ثابتتان على نبيل... أو بالأحرى على من يعتقد أنه أمجد.

همس المستشار العجوز الذي كان بجانب نبيل، بصوت لا يكاد يُسمع:

— لقد أعدوا كل شيء... حتى الخوذات. إنهم يعرفون أنك ستعترض.

لم يرد نبيل. كان يحاول أن يتذكر كل ما قاله له تامر عن ترتيب المجلس وعاداته وإشارات الأيدي التي يستخدمها المستشارون. لكن الذاكرة البشرية الجديدة كانت بطيئة ومزدحمة بالأحاسيس.

رفع تيمور يده فسكت الجميع كمن يقطع حبلاً.

قال بصوت جهوري واضح:

— الملك تكلم. والمجلس لم يعد موجوداً. لكن القضية لم تُحسم بعد. أهل الأرض ما زالوا هنا. ومناجمهم ما زالت تبتلع أرضنا. وحضارتهم ما زالت تُفسد أرواح أبنائنا. نحن نملك السلاح الذي حُرّم علينا ظلماً لسنوات طويلة. واليوم نرفعه من جديد.

التفت نحو نبيل مباشرة وابتسم ابتسامة باردة:

— أمجد بن الأرض... أنت الذي وقفت دائماً بيننا وبين حقنا. أنت الذي أقنعت الملك السابق بالتحريم. وأنت الذي زوجت نفسك بابنة زعيمنا لتصبح واحداً منا بالاسم فقط. واليوم... إما أن تقف معنا أو تُرفع من طريقنا نهائياً.

ضجت القاعة بهمهمة مكتومة. ونظر فادي من مقعده العالي إلى الرجل الذي يظنه أباه، وعيناه تلمعان بثقة طفولية مطلقة.

شعر نبيل بشيء يعتصر صدره. لم يكن هذا الألم من الجسد فقط. كان شيئاً أعمق. شيئاً يشبه الذنب.

تقدم خطوة إلى الأمام وقال بصوت ثابت، مستخدماً كل قوة أمجد التي عرفها الناس:

— أنا لا أقف ضد شعب تيتان. أنا أقف ضد الجنون. قيثارات الموت ليست سلاحاً... إنها لعنة. استُخدمت مرة في الماضي فدمرت من استخدمها قبل أن تمس أعداءه. هل نسيتم؟ هل نسيتم القرى التي جنّ أهلها؟ هل نسيتم الملوك الذين ماتوا وهم يسدون آذانهم بأيديهم؟

التفت إلى المستشارين واحداً واحداً:

— أنتم تعرفون الحقيقة. تيمور لا يريد تحرير المدينة. هو يريد عرشاً جديداً فوق جثث الجميع... أرضيين ووطنيين على حد سواء.

ساد صمت قصير. ثم ضحك تيمور ضحكة قصيرة جافة:

— كلام جميل... من رجل أرضي يرتدي ثيابنا ويتكلم بلغتنا. لكن الكلام لم يعد يكفي.

مد يده إلى داخل عباءته وأخرج شيئاً ملفوفاً بحرير أحمر قاتم.

في تلك اللحظة أحس نبيل أن الهواء في القاعة كلها قد تغير.

كأن شيئاً قديماً جداً ومرعباً جداً قد استيقظ للتو.

.

الفصل 11 (معدّل)

ظهور القيثارات

مد تيمور يده إلى داخل عباءته وأخرج شيئاً ملفوفاً بحرير أحمر قاتم.

ثم أخرج آخرين مثله من تحت عباءتي الرجلين اللذين يقفان إلى جواره. ثلاثة أكياس حريرية مغلقة بإحكام.

وضعها على الأرض أمام العرش ببطء متعمد، كأنما يؤدي طقساً قديماً.

ثم حلّ الرباط.

ارتفع من الأكياس الثلاثة شيء لا يشبه أي سلاح رآه نبيل من قبل.

ثلاث كائنات حية.

ريشها فضي متألق وماسي وردي، ينعكس عليه ضوء المصابيح الحمراء فيبدو كأنه يشتعل من الداخل. أعناقها رفيعة طويلة، وعيونها واسعة واستعة كعيون الطيور الليلية، لكنها تحمل في أعماقها شيئاً أقدم من الطيور وأقدم من الإنسان. أجنحتها مطوية بهدوء على جوانبها، وأجسامها الصغيرة تهتز اهتزازاً خفيفاً كأنها تتنفس الموسيقى قبل أن تطلقها.

كانت جميلة بشكل يقطع الأنفاس.

بدأت تغني.

في البداية كان اللحن عذباً نقياً بشكل لا يُصدق. نغمة واحدة طويلة صافية، كأنها أول صوت صدر في الكون بعد الصمت الأعظم. ثم انضمت إليها نغمات أخرى، وتداخلت في نسيج معقد من الترددات التي تشبه همسات الشموس الشابة وهي تدعو الكواكب إلى الوجود، أو أهازيج المجرات وهي تتشكل. كان لحناً مليئاً بالحياة والنمو والازدهار والفرح الكوني الهادئ.

شعر نبيل أن شيئاً يمسك بقلبه.

حتى وهو داخل جسد بشري حساس، كان الجمال يفوق احتماله. تذكر ما قاله أمجد في الغابة عن طبيعتها الأصلية، وعرف أنه يسمع الآن الحقيقة الأولى لهذه المخلوقات قبل أن تُمس.

ساد صمت عميق في القاعة. حتى تيمور نفسه وقف ساكناً للحظة، كأن اللحن أثّر فيه رغم الخوذة.

ثم تغير كل شيء.

رأى نبيل تيمور يغمض عينيه خلف حافة الخوذة، ويضع أصابع يديه على صدغيه بطريقة غريبة محددة. فعل الرجلان الآخران الشيء نفسه. كانت حركة طقسية واضحة: إيحاء ذهني جماعي، قوة عقلية مدربة تُفرض على الكائنات الرقيقة.

بدأ اللحن يتغير.

النغمات العذبة أخذت تتشوه تدريجياً. الفرح الكوني تحول إلى شيء أعمق وأكثر ظلمة. ظهرت فيه أصداء أنين بعيد، ثم أصوات معارك قديمة، وصرخات، ووقع أقدام هاربة، ورائحة دم متخيلة. شيئاً فشيئاً أصبح اللحن يتحدث عن الألم والحروب والموت والخسارة واليأس.

وارتفع.

شعر نبيل أن السكاكين بدأت تقطع داخل جمجمته. الجسد البشري الذي يسكنه ارتجف بعنف. العرق ينساب، والقلب يندفع، والرئتان تضيقان. اللحن لم يعد جميلاً. أصبح فخاً يفتح كل أبواب الرعب القديمة داخل العقل.

حوله كان المستشارون يتمايلون. بعضهم أغلق عينيه. وبعضهم وضع يديه على أذنيه عبثاً. والملك على عرشه ارتجف داخل خوذة الصمت.

ابتسم تيمور تحت خوذته.

كان يعرف ما يفعله. كان يحول جمال القيثارات إلى سلاح.

وفي تلك اللحظة أدرك نبيل أن المعركة ليست فقط ضد تيمور.

بل ضد ما يمكن للإرادة البشرية أن تفعله بالجمال عندما تقرر أن تستخدمه للموت.

أخرج الصندوق الفضي الصغير من جيبه، وأصابعه ترتجف، وضغط على الزر.

هل تريد أن أتابع مباشرة بالفصل 12 معدّلاً ليتناسب مع هذا التصحيح، أم تفضل أن أراجع أي فصل آخر قبل ذلك؟

الفصل 12 (معدّل)

الصندوق والصوت

كان اللحن المميت قد امتلأ القاعة عن آخرها عندما ضغط نبيل على الزر.

لم يعد هناك أثر للنغمات العذبة الأولى. الإيحاء الذهني الذي فرضه تيمور ورجاله كان قد أتم عمله. القيثارات الثلاث المغصوبة تطلق الآن أصواتاً تقطع العظم وتفتح كل أبواب الرعب داخل الرأس. المستشارون يتساقطون، والملك يرتعش داخل خوذته، وحتى الهواء نفسه بدا ثقيلاً ومسموماً بالموسيقى.

انفجر الصوت المضاد من الصندوق الفضي الصغير.

لم يكن صوتاً بالمعنى التقليدي. كان ذبذبة حادة عالية التردد، مصممة خصيصاً لتقطع النغمات المفروضة وتفكك الإيحاء الذهني الذي يربط القيثارات بإرادة تيمور. اصطدمت الموجتان في وسط القاعة كجدارين غير مرئيين.

ارتجت القيثارات بعنف.

رفعت أعناقها فجأة، وفتحت عيونها الواسعة، وأطلقت صرخة واحدة مشتركة حادة كأنها ألم جماعي. اللحن المميت تقطع وتكسر. النغمات السوداء تشظت، وبدأت تتراجع أمام الذبذبات المضادة.

شعر نبيل أن رأسه ينفجر.

الجسد البشري لم يكن مصنوعاً لتحمل حرباً صوتية من هذا النوع. الذبذبات تحميه من الجنون الكامل، لكنها لا تمنع الألم. شعر كأن سكاكين رفيعة تدور داخل جمجمته، وكأن الدم يغلي في أذنيه، وكأن قلبه يحاول أن يشق صدره. سقط على ركبة واحدة، والدم يسيل من أنفه على الأرضية الحجرية.

حوله تحولت القاعة إلى فوضى.

المستشارون الذين لم يرتدوا خوذات الصمت تهاووا أو زحفوا نحو الأبواب. الحراس أنفسهم بدأوا يتراجعون رغم الحماية الجزئية لخوذهم. الملك فقد وعيه تماماً وسقطت الخوذة الذهبية من رأسه ودحرجت على درجات العرش.

تيمور لم يسقط.

كان لا يزال يفرض إرادته بكل قوته. عيناه محمرتان خلف الخوذة، وأصابعه مضغوطة على صدغيه بعنف، محاولاً إعادة السيطرة على القيثارات. صرخ بأمر لم يسمعه أحد بوضوح، وتقدم رجاله نحو نبيل.

لكن القيثارات كانت تفلت منه.

واحدة تلو الأخرى توقفت عن إطلاق اللحن الأسود. ارتجفت أجسامها الفضية، ثم استرخت تدريجياً كأن ثقلاً رهيباً قد رُفع عنها. عيونها الواسعة التي كانت ممتلئة بالرعب المفروض بدأت تستعيد صفاءها القديم.

نبيل ضغط على الزر مرة أخيرة، بكل ما تبقى له من قوة في أصابعه المرتجفة.

سكنت القيثارات الثلاث تماماً.

توقف اللحن المميت. بقي فقط طنين خافت للذبذبات المضادة، ثم أطفأه نبيل. ساد صمت ثقيل ومفاجئ، أصمّ من الصخب نفسه.

رفع نبيل رأسه بصعوبة. الدم ما يزال يسيل، وجسده كله يرتعش. نظر إلى القيثارات الملقاة أمامه، ثم إلى تيمور الذي كان يحدق فيه بكراهية مطلقة، يده تتحرك ببطء نحو خنجره.

ومن خلف نبيل، عند المدخل الرئيسي، سمع صوت خطوات معدنية ثقيلة... وصوت عادل.

لقد وصلا.

ونظر نبيل إلى القيثارات مرة أخرى، وعرف أنه لم يحطمها.

بل حرر جزءاً منها من الإيحاء الذي كان يسجنها.

الفصل 13

الجنون والصمت

للحظة واحدة ساد صمت مطلق بعد سقوط القيثارات.

ثم انفجر كل شيء دفعة واحدة.

صرخ تيمور بأمر حاد، وتقدم رجاله الثلاثة من خلف العرش وهم يستلون خناجر طويلة منحنية. في الوقت نفسه اندفع حراس آخرون من الممرات الجانبية، بعضهم ما يزال يضع خوذة الصمت، وبعضهم نزعها من شدة الألم الذي خلفته الذبذبات.

نهض نبيل بصعوبة. كان جسده يرتعش، والدم ما يزال يسيل من أنفه، ورؤيته غير مستقرة. لكنه أمسك الصندوق الفضي بقوة، مستعداً لإطلاق موجة أخرى إذا اضطر.

لم يحتج إلى ذلك.

انفتح الباب الرئيسي للقاعة بقوة، ودخل عادل أولاً، سلاحه الليزري في يده، وخلفه فهد يملأ المدخل بجسده المعدني الضخم. لم يتكلما. لم يحتاجا إلى كلام.

اندفع فهد مباشرة نحو أقرب مجموعة من الحراس. اصطدم بهم كجدار متحرك، فتهاووا على الأرض تحت وطأة قوته. عادل أطلق شعاعاً قصيراً أصاب أحد رجالي تيمور في الكتف، فسقط الخنجر من يده.

تحول المكان إلى فوضى عارمة.

المستشارون الذين ما زالوا واعين يزحفون نحو المخارج. الملك ملقىً بلا حراك على درجات العرش. والقيثارات الثلاث ما تزال ترتعش على الأرض، ريشها الفضي يتلألأ تحت الأضواء الحمراء كأنها جمرات حية.

تيمور لم يهرب.

اندفع مباشرة نحو نبيل، الخنجر في يده، وعيناه محمرتان من الغضب تحت الخوذة. كان يصرخ شيئاً بلغة تيتان القديمة، كلمات مليئة بالكراهية.

نبيل حاول أن يتراجع، لكن جسده البشري الجديد خانه. تعثرت قدمه في عباءة أحد المستشارين الساقطين، فسقط على ركبته مرة أخرى.

رفع تيمور الخنجر.

في تلك اللحظة سمع نبيل صوتاً صغيراً مألوفاً يصرخ من جهة المقاعد العالية:

— أبي!!

كان فادي.

قفز الصبي من مكانه واندفع عبر القاعة المزدحمة، متجهاً مباشرة إلى الرجل الذي يعتقد أنه والده. كان وجهه شاحباً، وعيناه واسعتان من الرعب، لكنه لم يتوقف.

— فادي! ابقَ بعيداً!

صوت نبيل خرج أجش ومتقطعاً، لكنه وصل متأخراً.

اعترض أحد رجالي تيمور طريق الصبي. دفعه بعنف جانباً، فارتطم فادي بأحد الأعمدة وسقط. نهض بسرعة، ودمه يسيل من جبينه، وواصل الركض.

وصل إلى نبيل في اللحظة نفسها التي كان فيها خنجر تيمور يهبط.

...intervening

فهد وصل أولاً.

يده المعدنية أمسكت بذراع تيمور في الهواء، وأدارتها بقوة وحشية. سُمع صوت عظم ينكسر. سقط الخنجر. ثم ضربه فهد ضربة واحدة في الصدر، فطير تيمور إلى الخلف وارتطم بقاعدة العرش، وظل هناك بلا حراك.

لكن الضرر كان قد وقع.

نظر نبيل إلى الأسفل.

كان فادي منحنياً أمامه، يداه الصغيرتان تضغطان على جنبه. بين أصابعه ظهرت بقعة حمراء تتسع بسرعة. رفع الصبي رأسه، وعيناه تبحثان عن وجه أبيه.

همس بصوت ضعيف جداً، يكاد لا يُسمع وسط الضجيج:

— أبي...؟

أحاط نبيل بالصبي بكلتا ذراعيه، واحتضنه بقوة. شعر بالدم الدافئ ينساب على يديه، وبالجسد الصغير يرتجف ثم يسترخي تدريجياً.

حاول أن يقول شيئاً. أي شيء. لكنه لم يجد الكلمات.

في تلك اللحظة، وسط صرخات الجرحى وخطوات فهد المعدنية وهي تلاحق آخر المقاومين، وعادل ينادي اسمه من بعيد، عرف نبيل ثمن القرار الذي اتخذه في المختبر.

لم يكن الثمن جسده فقط.

ولا عقله.

كان الثمن هذا الصبي الذي مات وهو يعتقد أنه بين ذراعي أبيه.

الفصل 14

الدماء والرماد

ظل نبيل جاثماً على ركبتيه، محتضناً جسد فادي.

كان الصبي قد توقف عن الارتجاف. رأسه الصغير مائل على كتف نبيل، وعيناه مفتوحتان لكنهما لا تريان شيئاً. الدم الذي سال على الأرضية الحجرية بدأ يبرد تحت الأضواء الحمراء الخافتة.

حوله كانت المعركة قد انتهت تقريباً.

فهد يقف فوق جثة تيمور، يده المعدنية ما تزال مغلقة على ما تبقى من عباءته السوداء. عادل يفحص الملك المستلقي بلا حراك على درجات العرش، ثم يلتفت نحو نبيل ويهرول إليه.

— نبيل!

توقف عادل فجأة عندما رأى الصبي. لم يقل شيئاً. فقط ركع إلى جواره ووضع يده على كتف نبيل للحظة قصيرة، ثم سحبها.

همس نبيل بصوت أجش، كأنه يتحدث إلى نفسه:

— كان يعتقد أنني أبوه... حتى اللحظة الأخيرة.

لم يرد عادل. لم تكن هناك كلمات مناسبة.

في الجانب الآخر من القاعة كان المستشار العجوز يحاول النهوض، ممسكاً برأسه. الحراس الذين نجوا تفرقوا أو استسلموا. والقيثارات الثلاث ما تزال ملقاة على الأرض، ريشها الفضي يتسخ بالدم والغبار، لكنها لم تعد تتحرك بعنف. أصبحت هادئة بشكل غريب، كأنها تستمع إلى شيء بعيد.

رفع نبيل رأسه أخيراً.

نظر إلى يديه الملطختين، ثم إلى الجسد الطويل الذي يسكنه... جسد أمجد. شعر فجأة بثقل لا يُحتمل. ثقل اللحم والدم والعظام والأعصاب التي تنقل الألم بكل تفاصيله القاسية. ثقل أن يكون إنساناً مرة أخرى، وأن يشعر بكل هذا.

قال بهدوء، لكن بصوت لا يقبل النقاش:

— أريد العودة.

نظر إليه عادل بحدة:

— ماذا تعني؟

— أريد العودة إلى شكلي... إلى الصندوق. لا أستطيع البقاء هكذا.

صمت عادل للحظة، ثم قال بصوت منخفض:

— العملية معقدة. والجسد... جسد أمجد... لن يتحمل البقاء بدون عقل لفترة طويلة.

— أعرف. لكنني لا أحتمل هذا الألم. ليس ألم الجسد... ألم أن أرى هذا الصبي يموت بين ذراعي وهو يناديني «أبي».

اقترب فهد بخطواته الثقيلة ووقف فوقهما. عيناه الفيروزيتان تلمعان في الضوء الأحمر. لم يتكلم، لكنه أومأ برأسه مرة واحدة، كأنه يفهم أكثر مما يظهر.

نظر نبيل إلى القيثارات الثلاث مرة أخيرة.

كانت ساكنة تماماً الآن. واحدة منها حركت رأسها الصغير حركة بطيئة جداً، وعيناها الواسعتان التقتا بعينيه للحظة. لم يكن هناك لحن. لم يكن هناك تهديد. فقط شيء يشبه الحزن... أو الامتنان.

همس نبيل:

— أنتم أيضاً كنتم سجناء... أليس كذلك؟

لم يجب أحد. لكن في مكان ما عميق داخل صدره البشري المؤقت، شعر أن الإجابة كانت «نعم».

رفع جسد فادي بحذر شديد، واحتضنه مرة أخرى، ثم وقف مترنحاً. قال لعادل:

— خذنا إلى «الشهاب». انتهِ من كل شيء هناك. أريد أن أغادر هذا الجسد قبل أن يقتلني ما أشعر به.

نظر عادل إلى فهد، ثم إلى الجثث المنتشرة في القاعة، ثم إلى الملك الذي بدأ يستعيد وعيه ببطء. أخيراً أومأ برأسه.

— حسناً.

بينما كانوا يغادرون قاعة المجلس، وسط الدماء والرماد ورائحة البخور المختلطة بالموت، التفت نبيل مرة أخيرة إلى الخلف.

رأى القيثارات الثلاث ما تزال ملقاة هناك، وحيدة تحت الأضواء الحمراء.

وعرف أن قصتها لم تنتهِ بعد.

ولا قصته هو.

الفصل 15

تحرر القيثارات

كان الليل قد أرخى سدوله تماماً على غابة الطحالب عندما عادوا إلى «الشهاب».

حمل فهد القيثارات الثلاث بنفسه. لم يلفها بشيء، ولم يقيدها. وضعها على ذراعيه المعدنيتين بحذر غريب، كمن يحمل شيئاً هشاً وثميناً في آن واحد. كانت ساكنة تماماً طوال الطريق، ريشها الفضي متسخ بالدم والغبار، وعيونها الواسعة مغلقة كأنما في نوم عميق.

داخل المختبر الصغير، أعاد عادل نبيل إلى الصندوق المعدني.

كانت العملية أطول وأكثر إيلاماً هذه المرة. الجسد البشري الذي سكنه نبيل لساعات قليلة رفض أن يتخلى عنه بسهولة. شعر نبيل، وهو ينفصل تدريجياً عن اللحم والدم، بكل شيء للمرة الأخيرة: حرارة المصابيح، رائحة المطهرات، ثقل الجفون، ودقات القلب التي تبطئ شيئاً فشيئاً.

ثم عاد الصمت الإلكتروني المألوف.

عاد عقلاً حراً داخل الهيكل المعدني الصغير.

لكن شيئاً ما كان مختلفاً.

حتى وهو يحوم فوق منضدة المختبر، كان ما يزال يسمع... أو يتذكر... صوت فادي وهو يهمس «أبي». وكان ما يزال يشعر بثقل الجسد الصغير في ذراعيه.

قال عادل بصوت متعب:

— انتهى الأمر. الجسد... جسد أمجد... سيستريح الآن إلى جوار ابنه.

لم يرد نبيل. كان ينظر إلى القيثارات الثلاث التي وضعها فهد على الأرضية المعدنية في ركن المختبر.

فجأة، تحركت إحداها.

رفعت رأسها الصغير ببطء، وفتحت عينيها الواسعتين. لم يكن فيهما جنون ولا تهديد. كان فيهما شيء يشبه اليقظة بعد كابوس طويل. ثم تحركت الثانية، ثم الثالثة.

بدأ الصوت.

في البداية كان خافتاً جداً، أقرب إلى تنفس منه إلى غناء. نغمة واحدة نقية، مختلفة تماماً عن اللحن الذي ملأ قاعة المجلس. لم تكن نغمة موت ولا جنون. كانت نغمة قديمة، قديمة جداً، كأنما خرجت من فجر تيتان نفسه.

ثم انضمت النغمات الأخرى.

ارتفع اللحن ببطء، ملأت المقصورة الصغيرة، تسربت عبر الجدران المعدنية إلى خارج السفينة، واختلطت بعويل أشجار الطحالب حتى جعلته يبدو أقل وحشة. كان لحناً عذباً، متدفقاً، مليئاً بشيء يشبه الفرح الهادئ... فرح من استعاد شيئاً سُرق منه منذ زمن بعيد.

تحرر.

نظر فهد إلى الكائنات الثلاث، وعيناه الفيروزيتان تلمعان بشكل مختلف هذه المرة. عادل توقف عن ترتيب أدواته ووقف صامتاً يستمع. أما نبيل، داخل صندوقه المعدني، فقد شعر بشيء يعتصر ما تبقى من إنسانيته القديمة.

همس بصوته الرنان، منخفضاً جداً:

— لقد كنتم سجناء مثلنا... أليس كذلك؟

القيثارات لم تجب بالكلمات. أجابت باللحن.

ارتفع الصوت أكثر، أصبح أقوى وأنقى، حتى ملأ الغابة المحيطة بالسفينة. أشجار الطحالب التي كانت تعوي منذ أيام بدت فجأة وكأنها تصغي. والرياح التي كانت تمر عبر أغصانها حملت النغمات بعيداً نحو الوادي، نحو مدينة قمر زحل النائمة، نحو كل مكان وصل إليه رعب القيثارات من قبل.

وقف فهد ببطء، وانحنى، وحمل الكائنات الثلاث مرة أخرى. خرج بهن من السفينة إلى الهواء البارد لتيتان. وضعين على صخرة مستوية تحت ضوء حلقات زحل الباهت.

هناك، تحت السماء الواسعة، أكملت القيثارات غناءها.

لم يكن غناء انتصار.

كان غناء حرية.

نبيل راقبهن من مدخل السفينة، صندوقه المعدني يحوم في الهواء بلا صوت. شعر بألم مضاعف هذه المرة. ألم فادي، وألم أمجد، وألم أنه لم يعد يستطيع أن يبكي، وألم أنه سمع أخيراً اللحن الحقيقي لهذه المخلوقات... اللحن الذي كان يجب أن يُسمع منذ البداية.

همس عادل من خلفه:

— هل تظن أنها ستعود إلى الغابة؟

أجاب نبيل بعد صمت طويل:

— نعم. إلى طبيعتها... حيث كان يجب أن تبقى دائماً.

وبالفعل، بعد أن اكتمل اللحن، رفرفت القيثارات الثلاث بأجنحتها الفضية مرة واحدة، وارتفعت في الهواء ببطء، ثم اختفت بين ظلال الأشجار الطحلبية كأنها لم تكن موجودة من قبل.

بقي فقط صداها.

صداها العذب الذي ظل يتردد في أذن نبيل المعدنية طويلاً بعد أن صمت كل شيء.